بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 11 أبريل 2019

القِـــــــرَاءَاتُ وعُـــــــلُومُ القُرْآنِ

المنجي الأسود
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019
All rights reserved © 2019

القِــرَاءَاتُ وعُــلُومُ القُرْآنِ[1]

1ـ يمثّل هذا العمل الفصل الأوّل من الباب الثالث من كتاب "القراءات علماً من علوم القرآن"، تأليف: المنجي الأسود ـ منشورات مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط 1، بيروت، 2017.

الملخّص:

مدار هذا الفصل على دراسة مظاهر التقاطع بين القراءات ومختلف علوم القرآن في المصادر الإسلاميّة القديمة. والداعي الأساسي لدراسة هذا التقاطع هو أنّ الأغلبيّة المطلقة من الدراسات الحديثة في هذا المبحث قاربته مقاربة سطحيّة تجترّ ما ورد في المصنّفات الإسلاميّة القديمة. وبالمقابل هناك دراسات قليلة جدّاً تدبّرت العلاقة بين القراءات وعدد من علوم القرآن من منظور تفهّمي نقدي (مثلاً أطروحة بسّام الجمل عن أسباب نزول القرآن). وبناءً على ما سبق درس المنجي الأسود، في مرحلة أولى، الصلة بين القراءات والتفسير وذلك بالرجوع إلى كتب التراث مثل «الإتقان» للسيوطي وتفسير الصنعاني. فقد لاحظ المؤلّف كثرة القراءات المحمولة على التفسير (مثل تفسير البحر المحيط لأبي حيّان)، وهو ما يُحوج إلى التعويل على مأثور الرسول والصحابة والتابعين. وهنا أنجز المؤلّف جدولاً مفصّلاً يبيّن فيه بتفصيل دقيق القراءات المحمولة على التفسير. وفي مرحلة ثانية تناول صاحب الفصل العلاقة بين القراءات والنسخ. فلاحظ أنّ الصلة بينهما تختلف باختلاف الضروب الثلاثة للنسخ (نسخ الحُكْم والتلاوة ـ نسخ التلاوة دون الحكم ـ نسخ الحكم دون التلاوة). والمهمّ، ههنا، أنّ مقالة النسخ تكون منسجمة مع القراءات الرسميّة المعترف بها. أمّا القسم الثالث من هذا الفصل، فهو مخصّص لدراسة العلاقة بين القراءات وأسباب النزول. وهذه الصلة عبّرت عن تفاعل بين العِلْميْن؛ إذ للقراءات دور مهمّ في صنع أخبار أسباب نزول القرآن. وختم المؤلّف هذا الفصل بتدبّر الصلة بين القراءات ومسألة التكرار (فصل ما تكرّر نزوله من القرآن حسب السيوطي). وهذا التكرار يتقاطع مع القراءات في الإلمام بالنصّ القرآني. والحاصل ممّا تقدّم أنّ الكلام على أثر عدد من علوم القرآن في القراءة من الأسباب التي حالت مثلاً دون إثبات دور الذاكرة في تكرار بعض القراءات.

****

لا شكّ، حسب ما تقدّم في الفصول السابقة، في أنّ القراءات لا يمكن أن تدرس بمعزل عن علوم القرآن الأخرى؛ لأنّها تتقاطع معها في العديد من النقاط، ويظهر ذلك في كتب علوم القرآن التقليديّة، وخصوصاً مع الزّركشي والسّيوطي، وقد نبّهنا إلى هذا التقاطع عندما استعرضنا مدوّنة علوم القرآن في الفصل الثالث من الباب الأوّل. وهو الأمر نفسه الذي نبّهتْ إليه بعض الدّراسات الحديثة، لكنّ هذه الدراسات تطرّقت إلى ذلك من زاويتين مختلفتين: الأولى تقليديّة تطرّقت إلى ذلك تطرّقاً سطحيّاً لا يختلف كثيراً عن المصنّفات القديمة إلّا في الصّياغة، ونلحظ هذا في الدّراسة التي أعدّها نبيل بن محمّد إبراهيم آل إسماعيل ووسمها بعنوان: (**علم القراءات: نشأته ـأطواره ـأثره في العلوم الشرعيّة**)[1]، وقد خصّص الباب الثالث منها: **أثر القراءات في العلوم الشرعيّة**، ليبيّن أثرها في التفسير[2] وفي الأحكام الفقهيّة[3] وفي النحو العربي[4]. وعلى الرّغم من أهمّيّة هذه الدّراسة، من حيث المباحث التي اهتمّت بها، فإنّها لم تُشر إلى كلّ القراءات التي كان لها الأثر البالغ في التشريع، فتجاهلت الكثير منها، ولاسيّما تلك التي كان لها اليد الطولى في توجيه الأحكام، وكان همّها الأسمى البحث عن الانسجام والتناغم بين تلك العلوم.

وفي مقابل ذلك تظهر بعض الدّراسات الأكاديميّة الأخرى، التي تطرّقت إلى بعض من أوجه هذه العلاقة من زاوية نظر نقديّة وفق طبيعة الموضوع الذي تثيره في هذا المجال. فقد خصّص بسّام الجمل الباب الثالث من أطروحته (**أسباب النزول**): أثر أسباب النزول في علوم القرآن في فصول أربعة تتعلّق بأثر أسباب النزول في الوحي والقراءات والنسخ والتفسير[5].

وغاية الباحث في هذا المجال: «**الوقوف على الأدوار التي يمكن أن تؤدّيها أسباب النزول في مباحث محوريّة في الفكر الإسلامي قديماً**»[6]. وهو مطلب دالٌّ على جدّيّة في التناول والبحث من شأنه أن يفتح لنا أبواباً في مراجعة العلاقات التفاعليّة من منطلق نقدي بين تلك العلوم. وللوقوف على ذلك اخترنا أن ننظر في علاقة القراءات بعلم التفسير، ثمّ بالناسخ والمنسوخ، ثمّ بأسباب النزول، ثمّ بمسألة التكرار. ويدلّ على صلة هذه العلوم بالقراءات حضورها في مصنّفات التفسير وعلوم القرآن؛ فالقراءات مادّة تفسيريّة مهمّة إلى

1- آل إسماعيل، نبيل بن محمّد إبراهيم، علم القراءات: نشأته ـأطواره ـأثره في العلوم الشرعيّة، مكتبة التوبة، المملكة العربية السعودية، ط 1، 2000م.

2- المرجع نفسه، ص325.

3- المرجع نفسه، ص365.

4- المرجع نفسه، ص401.

5- الجمل، بسّام، أسباب النزول، ص221.

6- المرجع نفسه، ص219.

جانب كونها مساهمة في إنتاج أسباب النزول؛ بل إنّها المحدّد الرئيس لمفهوم النسخ وتعدّده بتعدّد قراءات الآية المتعلّقة به. أمّا التكرار، فقد رأينا في نهاية الباب السابق كيف كان له دورٌ في حفظ النصّ القرآني، إضافة إلى دوره في تنشيط الذاكرة لاستحضار النصّ المحفوظ فيها.

1- القراءات والتفسير:

بيّنت المصادر الحديثيّة الأولى أنّ تفسير النصّ القرآنيّ نشأ في رحمها، ونشأت ضمنه علومه المختلفة، كما بيّنت الدراسات المهتمّة بالتفسير أنّ أوّل التفاسير المكتملة، التي استقلّ التفسير بنفسه فيها، ظهرت في القرن الثالث للهجرة. وتحديد جذور هذا العلم له روابط وطيدة بطبيعة العلاقة التي تربط بينه وبين القراءات باعتبارها علماً من علوم القرآن إلى جانب التفسير.

وقد حدّدت كتب علوم القرآن المتأخّرة طبيعة هذه العلاقة، من ذلك ما ذكره السّيوطي في (**الإتقان**) ضمن النوع السادس من القراءات: «**وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير**»[7]. فقد شبّه هذا النوع من القراءات بما اصطلح عليه في علوم الحديث بـــ: الحديث المدرج[8]، وهو ما يتيح لنا تسمية هذا النّوع من القراءات، حسب السّيوطي، القراءات المدرجة. واستقى المؤلف أمثلته من مصادر حديثيّة تعود إلى القرنين الثالث والرابع للهجرة للاستدلال على صحّة ما ذهب إليه، وهي **سنن سعيد بن منصور** وصحيح **البخاري** وكذلك ابن الأنباري (ت 328هـــ). وهذه القراءات التي عَدّها السّيوطي تفسيراً هي:

- قراءة ابن عباس «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ**» [البقرة 198/2][9].

- وقراءة ابن الزبير «**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيَسْتَعِينُونَ بِاللهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ**» [آل عمران 104/3][10].

- قراءة سعد بن أبي وقاص (ت 51هـــ-58هـــ) «**وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمٍّ**» [النساء 12/4][11].

7- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص208-209.

8- يعرّف ابن الصلاح في مقدّمته لعلوم الحديث الحديث المدرج بأنّه أقسام منها: ما أدرج في حديث الرسول من كلام بعض رواته (...) ومنها أن يكون متن الحديث عند الراوي له بإسناد الأوّل، ويحذف الإسناد الثاني، ويروي جميعه بالإسناد الأوّل (...) ومنها: أن يدرج في متن حديث بعض متن حديث آخر، مخالف للأوّل في الإسناد (...) ومنها: أن يروي الراوي حديثاً عن جماعة، بينهم اختلاف في إسناده، فلا يذكر الاختلاف؛ بل تدرج روايتهم على الاتفاق (...). ابن الصلاح، مقدّمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح، ص274.

9- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الحج، باب التجارة أيام الموسم والبيع في أسواق الجاهليّة، كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: {فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا في الأَرْضِ} [الجمعة 10/62]. كتاب التفسير، باب {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ} [البقرة 198/2]، ج2، ص628، 723، 740.

10- ابن منصور، سعيد، سنن سعيد بن منصور، كتاب التفسير، ج 3، ص1084.

11- المصدر نفسه، ج 3، ص1187.

- وأخرج ابن الأنباري عن الحسن البصري أنه كان يقرأ «**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا الوُرُودُ الدُّخُولُ**» [مريم 71/19].

والحقيقة أنّ بعض هذه القراءات تواتر حضوره في غير المصنَّفَين المذكورين، فيمكن أن نضيف إليهما (**تفسير عبد الرزاق الصّنعاني**) ومصنفه في الحديث، و(**مصنف ابن أبي شيبة**). لكن هل يعني ذلك أنّ هذه القراءات ينطبق عليها فعلاً تعريف كلّ أنواع الحديث المدرج؟ وبمعنى آخر هل القراءة المدرجة هي التي:

- تداخل فيها النصّ القرآني بتفسيره؟

- أو تداخلت فيها النصوص القرآنيّة المنتمية إلى سور مختلفة بعضها ببعض؟

- أو تداخلت فيها القراءات المتعدّدة للنصّ القرآني الواحد؟

لا شكّ في أنّ هذه الأسئلة تبدو مهمّة، لكنّ الإجابة عنها تبدو عسيرة؛ لأنّ التّعامل مع القراءات لا يمكن أن يكون مشابهاً للتعامل نفسه مع النصوص الحديثيّة، سواء في الظروف الحافة بتدوينه أم في طبيعة النصّ في حدّ ذاته.

وعلى الرغم من ذلك، يمكن أن نجيب عن بعض من هذه الأسئلة، ولاسيّما منها الإشكاليّة الأولى التي نستطيع أن نعالجها بالنظر في كيفيّة حضورها في التفسير وطبيعة تعامل المفسّرين معها. فلا بدّ من الإشارة أوّلاً إلى أنّ المفسرين لا يتعاملون مع كلّ القراءات بالدّرجة نفسها، فحاجتهم إليها تتفاوت بحسب سياقات خطاب النصّ القرآني، وطبيعة القراءة، وحاجة المفسّر إليها في إنتاج خطاب متماسك مع مواقفه العقائديّة والإيديولوجيّة. وفي هذا السّياق، عَدُّوا العديد منها قراءات على وجه التفسير، وفق منهج نرصده في تركيب مصاحب لمثل هذه القراءات كثيراً ما ردّده المتأخّرون منهم، مثل قولهم: «**ينبغي أن تحمل هذه القراءة على وجه التفسير**»[12].

وقد حاولنا أن نتتبع هذا التركيب وما كان مشابهاً له والقراءة التي صاحبها في خمسة تفاسير يفصل بين وفاة أصحابها فترات متقاربة من الزّمان. وهؤلاء المفسّرون هم:

- عبد الرزاق الصّنعاني (ت 211هـ) صاحب **تفسير عبد الرزاق**.

- أبو جعفر بن جرير الطبري (ت 310هـ) صاحب **جامع البيان**.

12- ويذكر بصيغة ثانية ولكن باختلافات طفيفة، المهمّ أنّ المفسرين ينعتون هذه القراءات بأنّها محمولة على التفسير.

- ابن عطية (ت 541هـــ) صاحب **المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**.

- القرطبي (ت 671هـــ) صاحب **الجامع لأحكام القرآن**.

- أبو حيان الأندلسي (ت 745هـــ)، صاحب **تفسير البحر المحيط**.

وكان منطلق اختيارنا لهذه التفاسير ملاحظتنا كثرة القراءات المحمولة على التفسير في البحر المحيط لأبي حيان؛ لذلك عَددناه المصدر الأساسي في تتبّع هذا النوع من القراءات، حتى تتسنّى لنا معرفة موقف المفسّرين السابقين له منها. وذهبنا على هذا الأساس إلى النظر في مواقف كلّ من الصّنعاني والطبري وابن عطيّة والقرطبي من إحدى وثلاثين قراءة كنّا قد وقفنا عليها في تفسير أبي حيّان، فعَدّها المؤلف محمولةً على التفسير. فلم نعثر منها في التفسير الأوّل إلّا على ستّ قراءات غير محمولة على التفسير. بينما ذكر الطبري منها خمس عشرة قراءة غير محمولة على التفسير أيضاً، ووظّف ثلاث قراءات منها في تفسير ثلاث آيات دون أن يشير إلى أنّها من القراءات. وحضورها تفسيراً عند الطبري لم يمنع ابن عطيّة من اعتبارها قراءات.

إنّ ما يميّز هذه القراءات، إذاً، هو أنّ العديد منها ورد باعتباره كلاماً للمفسّر، فهو يعرض معنى الآية أو التركيب أو اللفظ، ثمّ يستدعي القراءة ليثبت صحّة ما ذهب إليه انطلاقاً من مأثور الرّسول أو الصّحابة أو التّابعين، وهذا المأثور حسب الطبري هو قرآن لكن لم يقيّده جامعو القرآن على عهد عثمان. وقد بيّن ابن عطية وكذا أبو حيّان كما هو مثبت في الجدول أدناه أنّ الطبري ذكر ذلك على جهة التفسير لا على جهة القراءة[13]. ويوهم هذا الكلام بأنّ الطبري اعتمد المنهج نفسه الذي اعتمده من بعده ابن عطيّة، ولاسيّما أبو حيان الأندلسي في التعليق على القراءة بعد ذكرها، باعتبارها قراءة على التفسير. وهذا الأمر غير صحيح؛ لأنّه (أي: الطبري) فسّر **{تُرْهِبُونَ}** [الأنفال 60/8] بقوله: «**أي تخزون**»[14]. وهو موافق لقراءة ابن عباس وعكرمة ومجاهد، والتي أسندها الطبري إلى ابن عباس دون غيره. وقد أشار محمود محمّد شاكر محقق **تفسير جامع البيان** إلى ذلك مبيّناً أنّ الطبري ذكر هذا التفسير على جهة القراءة[15]. وما أشار إليه ابن عطيّة من أنّ أبا عمرو الدّاني أثبتها قراءة أغفله أبو حيّان.

وتجدر الإشارة إلى أنّ أبا حيان لم يذكر كلّ القراءات التي عَدّها ابن عطيّة والقرطبي محمولةً على التفسير. فالقرطبي على سبيل المثال استحضر تسع قراءات محمولة على التفسير لم يوردها أبو حيان. كما

13- ابن عطية، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج 2، ص546. وكذلك: الأندلسي، أبو حيّان، تفسير البحر المحيط، ج 6، ص95.

14- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج14، ص34.

15- المصدر نفسه، ج14، ص35، هامش1.

أنّه ذكر سبع قراءات معتبرة تفسيراً أوردها أبو حيان قراءات فقط. ويمكن جمع القراءات المحمولة على التفسير في الجدول الآتي:

جدول تتبّع القراءات المحمولة على التفسير

الرّموز: ق: قراءة - ت: تفسير - ق + ت: قراءة محمولة على التفسير.

ص: الصنعاني - ط: الطبري - ع: ابن عطية - ق: القرطبي - ح: أبو حيان

الآية برواية حفص عن عاصم	القراءة المخالفة	تفاسير				
		ص	ط	ع	ق	ح
(نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) البقرة 100/2	قرأ ابن مسعود «**نقضه فريق منهم**»[1]	-	ق	ق	-	ق + ت
(يُطِيقُونَهُ) [البقرة 184/2]	قرأ ابن عباس وعائشة وطاووس وعمرو بن دينار «**يطوقونه**»[2]	ق	ق	ق	ق + ت	ق + ت
(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) [البقرة 196/2]	قرأ علقمة «**وأقيموا الحج**» وقرأ ابن مسعود «**وأتموا الحج والعمرة إلى البيت لله**» وعنه «**وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت**»[3]	-	ق	ق + ت	ق	ق + ت
(فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ) [البقرة 222/2]	في مصحف أنس «**ولا تقربوا النساء في محيضهن واعتزلوهنّ حتى يتطهرن**»[4]	-	-	ق	ق	ق + ت
(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) [آل عمران 19/3]	قرأ النبي «**أنّ الدين عند الله الحنيفيّة لا اليهوديّة ولا النصرانيّة ولا المجوسيّة**»[5]	-	-	-	ق + ت	ق + ت
(وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ) [النساء 16/4]	قرأ عبد الله «**والذين يفعلونه منكم**»[6]	-	-	ق	-	ق + ت
(فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ) [النساء 25/4]	قرأ أبي «**إلا أن يفحشن عليكم**» وقرأ ابن مسعود «**إلا أن يفحشن وعاشروهن**» وكذا قرأ ابن عباس وعكرمة[7]	-	ق	ق	ق	ق + ت

(فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ) [النساء 34/4]	قرأ عبد الله وفي مصحفه «**فالصوالح قوانت حوافظ للغيب بما حفظ الله فأصلحوا إليهن**»[8]	-	-	ق	ق	ق + ت
(وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) [النساء 79/4]	«**وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبتها عليك**»[9]	-	-	ق	ق + ت	ق
(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى) [الأعراف 7 /131]	قرأ مجاهد «**تشاءموا**»[10]	-	ت	ق	-	ق +ت
(مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا) [الأعراف 201/7]	قرأ ابن الزبير «**من الشيطان تأملوا**» وفي مصحف أبي «**إذا طاف من الشيطان طائف تأملوا فإذا هم مبصرون**»[11]	-	-	ق	-	ق + ت
(وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) [الأنفال 2/8]	قرأ ابن مسعود «**فرقت**» وقرأ أبيّ «**فزعت**»[12]	-	ت	ق	-	ق + ت
(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)[الأنفال 60/8]	قرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد «**تخزون به**»[13]	-	ق	ق + ت	-	ق + ت
(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) التوبة 91/9	قرأ ابن عباس «**والله لأهل الإساءة غفور رحيم**»[14]	-	-	ق + ت	-	ق + ت
(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا) [التوبة 118/9]	قرأ الأعمش «**وعلى الثلاثة المخلفين**»[15]	-	-	ق	-	ق + ت
(قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ) [يونس 21/10]	في مصحف أبي «**يا أيها الناس إنّ الله أسرع مكراً وإن رسله لديكم يكتبون**»[16]	-	-	ق	-	ق + ت
(أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) [هود 28/11]	قرأ أبيّ «**أنلزمكموها من شطر أنفسنا**» وقرأ ابن عباس «**من شطر قلوبنا**»[17]	-	ق	ق	-	ق + ت

(وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ) [هود 111/11]	في حرف أبي «**وإن كلا إلا ليوفينهم**» وروي عن الأعمش «**وإنْ كل لمّا**»[18]	-	ق	ق	ق + ت	-
(أَعْصِرُ خَمْرًا) [يوسف 36/12]	قرأ أبي وعبد الله «**أعصر عنباً**»[19]	-	ق	ق	ق	ق + ت
(مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى) [الرعد 8/13]	في مصحف أبي «**ما تحمل كل أنثى وما تضع**»[20]	-	-	ق	-	ق + ت
(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) [الرعد 11/13]	قرئ «**له معتقبات**». وقرأ أبي «**من بين يديه ورقيب من خلفه**» وقرأ ابن عباس «**ورقباء من خلفه**» وقرأ أيضاً «**معقبات من خلفه ورقيب من بين يديه**»[21]	-	ق	ق	ق+ت	ق + ت
(وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) [إبراهيم 46/14]	قرأ أبيّ «**ولولا كلمة الله لزال من مكرهم الجبال**»[22]	-	-	ق	-	ق + ت
(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ*وَالَّذِينَ يَدْعُونَ) [النحل 19/16 -20]	قرأ الأعمش وأصحاب عبد الله «**يعلم الذي تبدون وما تكتمون وتدعون**» وقرأ طلحة «**ما يخفون وما يعلنون**»[23]	-	-	ق	-	ق + ت
(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) [الإسراء 17/ 23]	في مصحف ابن مسعود وأصحابه وابن عباس وابن جبير والنخعي وميمون بن مهران «**ووصى**» وقرئ «**وأوصى**»[24]	ق	ق	ق	ق	ق +ت
(فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا) [الإسراء 33/17]	قرأ أبيّ «**فلا تسرفوا في القتل إنّ ولي المقتول كان منصوراً**»[25]	-	-	ق	ق	ق +ت
(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ) [الكهف 77 /18]	قرأ الرسول «**فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه**»[26]	-	ت	-	ق + ت	-

(أَوَلَا يَذْكُرُ) [مريم 67/19]	في حرف أبي «**أولا يتذكر**»[27]	-	-	-	ق + ت	ق
(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) [مريم 71/19]	قرأ الحسن «**وإن منكم إلا واردها الورود الدخول**»[28]	ت	ت	-	ق + ت	-
(إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ) [طه 63/20].	قرأ ابن مسعود «**إن هذان إلا ساحران**»، وقرأ أيضاً «**إن هذان ساحران**»، وفي حرف أبي «**إن ذان إلا ساحران**»[29]	-	-	ق	ق+ ت	ق
(تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ) [المؤمنون 20/23].	قرأ عبد الله «**يخرج الدهن**» وقرأ أيضاً «**تخرج بالدهن**» وقرأ أيضا «**تخرج الدهن**» وقرأ أُبي «**تثمر بالدهن**»[30]	-	ق	ق	ق	ق + ت
(تَسْتَأْنِسُوا) النور 27/24	قرأ ابن عباس «**تستأذنوا**»[31]	ت	ق	ق + ت	ق	-
(فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا) [الفرقان 77/25]	قرأ ابن الزبير وابن عباس «**فقد كذب الكافرون**»[32])	-	ق	ق + ت	ق + ت	ق + ت
(وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) الشعراء 20/26	وفي قراءة عبد الله بن مسعود وابن عباس «**وأنا من الجاهلين**»[33]	ت	ق	ق + ت	ق	ق + ت
(أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) [النمل 8/27].	- قرأ أبي وابن عباس ومجاهد «**أن بوركت النار ومن حولها**» - قرأ أبي «**ومن حولها من الملائكة**»[34]	-	ت	ق	ق + ت	ق + ت
(تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ) [سبأ 14/34]	عن ابن عباس «**تبينت الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب**»[35]	ق	ت	ق	ق + ت	ق
(وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) [الزمر 33/39]	قرأ ابن مسعود «**وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ**» وقرأ «**والذي جاءوا بالصدق وصدقوا به**»[36]	-	ق	ق	ق + ت	ق

(إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [الزمر 53/39]	قرأ النبي «**إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم**»، وفي مصحف ابن مسعود «**إن الله يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء**»[37]	-	ق	ق	ق + ت	ق
(عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) [غافر 35/40]	في قراءة ابن مسعود «**على قلب كل متكبر**»[38]	-	ق	ق	ق + ت	-
(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [الشورى 52/42]	قرأ أبي «**وإنك لتدعو**»[39]	-	ت	ق	ق + ت	-
(طَعَامُ الْأَثِيمِ) [الدخان 44/ 44]	أقرأ أبو الدرداء أعرابياً فكان يقول «**طعام اليتيم**» فردّ عليه أبو الدرداء مراراً فلم يلقن فقال له: **قل «طعام الفاجر»** فقرئت كذلك[40]	-	ق	ق + ت	ق	-
(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ) [الواقعة 56/ 82]	قرأ عليّ وابن عباس «**وتجعلون شكركم**» ورويت عن النبي أيضاً[41]	ق	ق	ق	ق	ق + ت
(فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) [الجمعة 9/62].	قرأ عمر وابن مسعود «**فامضوا إلى ذكر الله**»، وقرأ ابن شهاب «**فامضوا إلى ذكر الله سالكا تلك السبيل**»[42]	ق	ق	ق	ق + ت	ق + ت
(لِعِدَّتِهِنَّ) [الطلاق 1/65]	قرأ ابن عباس «**فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ**»، وقرأ عبد الله «**لقبل طهرهن**»[43]	ق	ق	ق	ق	ق + ت
(لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ) [القلم 51/ 68]	وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش وأبو وائل ومجاهد «**ليزهقونك**»[44]	ت	ق	ق	ق + ت	ق
(فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا) [المزمل 17/73]	قرأ عبد الله «**فكيف تتقون يوما**»[45]	-	ت	-	ق + ت	-
(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ) [المدثر 42/74]	قرأ عبد الله بن الزبير «**يا فلان ما سلكك في سقر**» وقرأ عمر بن الخطاب «**يا فلان ما سلككم في سقر**»[46]	ق	-	-	ق + ت	-
(وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) [الضحى 7/ 93]	قرأ الحسن «**ووجدك ضال فهدى**»[47]	-	-	-	ق + ت	-

(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) [العلق 4/96].	قرأ ابن الزبير «**الذي علم الخط بالقلم**»[48]	-	-	-	-	ق + ت
(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ) [البينة 1/98	وقرأ ابن مسعود «**لم يكن المشركون وأهل الكتاب منفكين**»[49]	-	-	ق	ق + ت	-
	عدد القراءات في كلّ مصدر	7	22	41	35	18
	عدد القراءات المحمولة على التفسير	0	0	7	22	31
	عدد القراءات الغائبة	38	19	8	14	11
	عدد ما حضر منها تفسيراً لا قراءة	4	8	0	0	0

1- الطبري 202/2. ابن عطية 185/1. أبو حيان 493/1.

2- الصّنعاني 70/1. الطبري 418/3. ابن عطية 252/1. القرطبي 287/2 أبو حيان 41/2.

3- الطبري 7/4، ابن عطية 266/1، القرطبي 369/2، أبو حيان 41/2.

4- ابن عطية 298/1. القرطبي 88/3. أبو حيان 178/2.

5- القرطبي 43/4. أبو حيان 426/2.

6- ابن عطية 22/2. أبو حيان 207/3.

7- الطبري 116/8. ابن عطية 28/2. القرطبي 156/18. أبو حيان 213/3.

8- ابن عطية 47/2. أبو حيان 250/3.

9- ابن عطية 82/2. القرطبي 286/5. أبو حيان 313/3.

10- ابن عطية 443/2. أبو حيان 370/4.

11- ابن عطية 492/2. أبو حيان 446/4.

12- ابن عطية 501/2. أبو حيان 454/4.

13- الطبري 386/13. ابن عطية 546/2. أبو حيان 508/4.

14- ابن عطية 70/3. أبو حيان 88/5.

15- ابن عطية 94/3. أبو حيان 112/5.

16- ابن عطية 112/3. أبو حيان 140/5-141.

17- الطبري 229/15. ابن عطية 165/3. أبو حيان 218/5.

18- الطبري 495/15. ابن عطية 210/3. القرطبي 106/9.

19- الطبري 96/16. ابن عطية 3 /244. القرطبي 9 /190. أبو حيان 5 /308.

20- ابن عطية 3 /298. أبو حيان 5 /361.

21- الطبري 16 /372. ابن عطية 302/3. القرطبي 293/9. أبو حيان 364/5.

22- ابن عطية 346/3. أبو حيان 426/5.

23- ابن عطية 385/3. أبو حيان 468/5.

24- الصنعاني 376/2. الطبري 413/17. ابن عطية 447/3. أبو حيان 23/6.

25- ابن عطية 453/3. القرطبي 256/10. أبو حيان 31/6.

26- الطبري 67/18. القرطبي 27/11.

27- القرطبي 131/11. أبو حيان 195/6.

28- الصّنعاني 11/3. الطبري 230/18. القرطبي 136/11.

29- ابن عطية 50/4. القرطبي 216/11. أبو حيان 238/6.

30- الطبري 23/19. ابن عطية 140/4. القرطبي 116/12. أبو حيان 371/6.

31- الصنعاني 55/3. الطبري 145/19. ابن عطية 175/4. القرطبي 212/12-214. أبو حيان 371/6.

32- الطبري 323/19. ابن عطية 223/4. القرطبي 85/13. أبو حيان 475/6.

33- الصنعاني 73/3. الطبري 341/19. ابن عطية 228/4. القرطبي 95/13. أبو حيان 11/7.

34- الطبري 428/19. ابن عطية 250/4. القرطبي 158/13. أبو حيان 54/7.

35- الصنعاني 128/3. الطبري 372/20. ابن عطية 412/4. القرطبي 281/14. أبو حيان 257/7 - 258.

36- الطبري 291/21. ابن عطية 531/4. القرطبي 256/15. أبو حيان 411/7.

37- الطبري 308/21. ابن عطية 537/4. القرطبي 269/15. أبو حيان 411/7.

38- الطبري 384/21 – 385. ابن عطية 559/4. القرطبي 314/15.

39- الطبري 561/21. ابن عطية 44/5. القرطبي 60/16.

40- الطبري 42/22. ابن عطية 76/5. القرطبي 149/16.

41- الصنعاني 274/3. الطبري 154/23. ابن عطية 252/5. القرطبي 228/17. أبو حيان 214/8.

42- عبد الرزاق الصنعاني 291/3. الطبري 380/23. ابن عطية 309/5. القرطبي 102/18. أبو حيان 265/8.

43- الصنعاني 296/3. الطبري 432/23. ابن عطية 323/5. القرطبي 153/18. أبو حيان 278/8.

44- الصنعاني 311/3. الطبري 565/23. ابن عطية 355/5. القرطبي 255/18. أبو حيان 311/8.

45- الطبري 694/23. القرطبي 49/19-50.

46- الصنعاني 331/3. القرطبي 87/19.

47- القرطبي 99/20.

48- أبو حيان 489/8.

49- القرطبي 140/20.

والملاحظ قلّة القراءات الواردة في المصنّف الأوّل؛ إذ لم يتضمّن إلّا سبع قراءات من جملة القراءات التي أثبتناها في البحر المحيط. ولم يحمل الصنعاني ولا الطبري على التفسير أيّاً من تلك القراءات السبع، وما يميّز الطبري عن الصنعاني هو كثرة القراءات التي أوردها في تفسيره، وعدّها ابن عطية أو القرطبي أو أبو حيان قراءات على وجه التفسير.

يعكس الجدول، إذاً، تدرّجاً في طبيعة حضور القراءات في المصنّفات التفسيريّة سابقة الذكر، فقد حضرت باعتبارها تفسيراً، ثمّ تحوّلت قراءات، ثمّ اعتُبِرت بعد ذلك قراءة محمولة على التفسير. ويدلّ اختلاف حضورها على تطوّر مواقف المفسّرين من تلك القراءات. وهو تطوّر يظهره تنامي عدد القراءات المحمولة على التفسير يمكن أن نجسّده في الرّسم البياني الآتي:

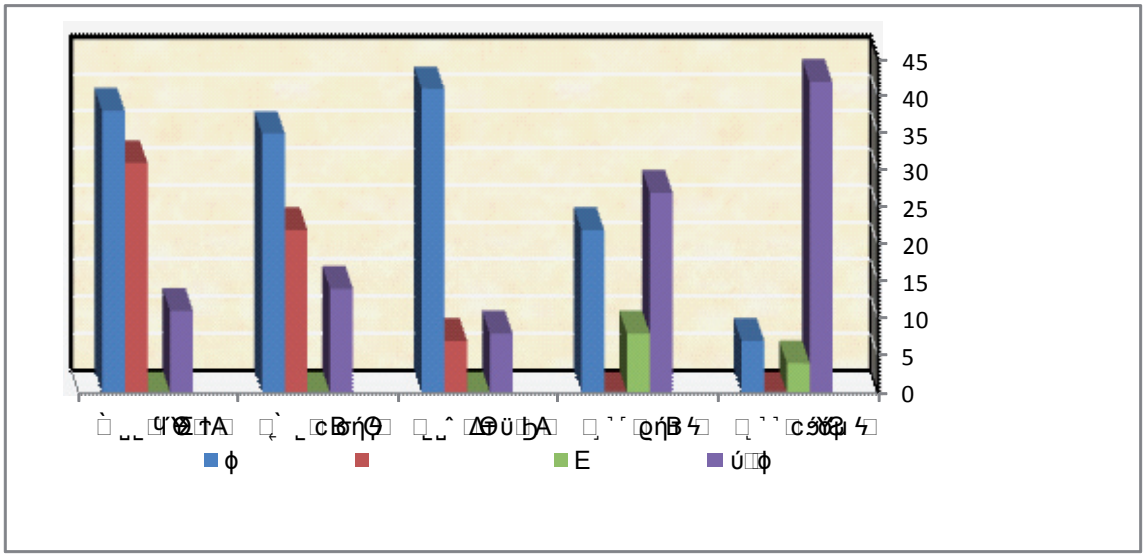

رسم بياني في تطوّر القراءات المحمولة على التفسير

الرموز المستعملة في الرسم البياني:

(ق) = قراءة. (ق + ت) = قراءة محمولة على التفسير. (ت) = ما حضر من القراءات على أنّه تفسير لا قراءة. - (ق. غ) = القراءة الغائبة عن التفاسير.

يبيّن لنا هذا الرسم أنّ تفسير الآية بكلام عُدَّ لاحقاً من القراءات التفسيريّة لم يظهر إلّا مع الصنعاني والطبري، وقد عوّضته تلك القراءات في التفاسير الثلاثة اللاحقة له. وقد يكون لذلك علاقة بالتصنيف المستقل في القراءات، ولاسيّما منها التي اهتمّت بعد الطبري بجمع القراءات الشاذّة. ما جعل ابن عطية والقرطبي وأبا حيان يَعدّونها قراءات على وجه التفسير مزجاً بين موقفي المصنفين في الشواذ والمفسّرين السّابقين لهم.

على أنّ هذا التدرّج لا ينعكس في الأرقام فحسب؛ بل يظهر أيضاً في مضمون تعليق المفسّر على القراءة، فابن عطيّة يشير، في غير مرّة، إلى أنّ بعض هذه القراءات تشبه التفسير وليست تفسيراً، بينما يبدو خطاب أبي حيان صارماً، وهو ما يظهر في دعوته إلى وجوب حمل القراءات المخالفة للمصحف على أنّها تفسير. ويعلّل سبب حملها على ذلك بكونها مخالفة لسواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون. ويبدو هذا المنهج أيضاً انتقائيّاً؛ لأنّه لم يشتمل على كلّ القراءات التي خالفت الرسم العثماني. وبالعودة إلى كلّ القراءات، التي نسبها إلى مصاحف أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود والأعمش، نكتشف تهافت معيار «**مخالفة سواد المصحف**»، الذي اعتمده لإقصاء هذه القراءات. وهو ليس المعيار الوحيد الذي وظّفه القدامى إذا راموا إقصاء إحدى القراءات.

2- القراءات والناسخ والمنسوخ:

ومن بين تلك المعايير علم الناسخ والمنسوخ، الذي تأسّست مقولة النسخ فيه على الآية (106) من سورة البقرة (2) {**ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**}. وتتحدّد علاقتها بالقراءات من منطلق تعريف المنسوخ، فهو ثلاثة أضرب على حدّ تعبير ابن سلامة (ت 410هـ): ضرب نسخ خطه وحكمه، وضرب نسخ خطه وبقي حكمه، وضرب نسخ حكمه وبقي خطه[16].

وتختلف علاقة القراءات بهذه الأضرب الثلاثة، فالضرب الثالث تحكمه علاقة تناغميّة بالقراءات؛ إذ تبدو مقولة النسخ منسجمة مع القراءة الرسميّة، حتى إنّ أغلب الآيات التي ورد فيها النسخ لم نرصد فيها قراءات مخالفة. أمّا الآيات التي ورد فيها الاختلاف، فليس لذلك كبير أهمّية باستثناء بعض الآيات، منها الآية (158) من سورة البقرة (2). فالقراءة الرّسميّة {**إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ**} [البقرة 158/2]، لكنّ القراءة المخالفة تضمّنت نفي الطواف بالصفا والمروة، فقرأ عدد من الصحابة «**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَلَّا يَطَّوَّفَ بِهِمَا**»[17]، وهي القراءة التي عوّل عليها المفسّرون في بيان معنى القراءة الرّسميّة، والتجؤوا أمام هذا الإشكال إلى النسخ، فرأى ابن العربي أنّ هذه الآية منسوخة بآية البقرة (130/2)؛ لأنّ معناها: «**لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا**»، وهو المعنى نفسه الذي أثبتته القراءة المخالفة[18].

16- ابن سلامة، هبة الله، الناسخ والمنسوخ، ص9-10. بهامش كتاب أسباب النزول للواحدي.

17- وهي قراءة عليّ وسعيد بن جبير وأنس بن مالك وأبي بن كعب وابن مسعود وغيرهم، الزمخشري، تفسير الكشاف، ج 1، ص350، ابن عطيّة، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج 1، ص229، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 2، ص123.

18- ابن العربي، الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، دراسة وتحقيق عبد الكبير العلوي المدغري، المملكة المغربيّة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، 1988م، ج2، ص51.

أمّا الضربان الأوّل والثاني، فيشتركان في كون النّسخ تعلّق بالخطّ، وهو ما يعني نسخ القراءات التي لم يثبتها الرّسم العثماني، وخصوصاً ما ورد منها في مصاحف ابن مسعود وأبيّ وعليّ وعائشة وحفصة وغيرها من المصاحف الأخرى، إضافة إلى ما أوردته كتب التفسير وعلوم القرآن في هذا الباب. والأمثلة على ذلك كثيرة جدّاً، فتكفي العودة إلى المصنفات الحديثيّة الأولى التي أشرنا إليها سابقاً حتّى نقف على الكمّ الهائل لهذا النوع من القراءات، وهي نفسها التي عدّها القدامى قراءات على وجه التفسير، أو قراءات شاذة، إنّما جاءت لتفسّر القراءات المتواترة.

فالعلاقة بين القراءات والنسخ، إذاً، هي نفسها تقريباً بين القراءات والتفسير من حيث تبرير وجودها من جهة، وتبرير عدم إدراجها ضمن القراءة الرّسميّة من جهة أخرى. وهو المنطق نفسه الذي يبرّر وجود آيات منسوخة في القراءة الرّسميّة، والحال أنّ عمليّة جمع القرآن، التي أشرف عليها عثمان، قد استثنت جزءاً كبيراً منها فقد: «**أحرق عثمان مصاحف كان فيها آيات وقراءات منسوخة ولم ينكر عليه**»[19] فكيان هذه القراءات بقي مذبذباً بين الوجود والعدم: وجودٍ يفرض نفسه على القدامى انطلاقاً من جملة إكراهات تبدو مسلّطة عليهم منها قدسيّة النّصّ الذي يتعاملون معه، وعَدَمٍ يتجسّد في إقصاء هذا النصّ المقدّس من القراءة الرّسميّة، ولكنّه يأبى الإقصاء في المجالات الأخرى، ولاسيّما منها التفسير واستنباط الأحكام.

ويتأكّد هذا التأرجح في الآية التي يتأسّس عليها النسخ انطلاقاً من معناها، والقراءات التي تضمّنتها فمعنى **{ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ}** [البقرة 106/2] يبدو واضحاً وهو النسخ؛ إذ لم ترد فيه قراءات مخالفة من شأنها التأثير في المعنى باستثناء تأخيره وتقديم لفظ «ننس» في قراءة عبد الله بن مسعود «**مَا نُنْسِكَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَخْهَا**»[20]. ويظهر الاختلاف في التركيب الثاني **{أَوْ نُنْسِها}**، فقد جاء في كتاب (**المصاحف**) لابن أبي داود أنّ سعداً بن أبي وقاص قرأ «**مَا نَنْسِخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَنْسَاهَا يَا مُحَمَّد**»[21]، ففعل النسخ من الله، وفعل النسيان من النبيّ محمّد، وإضافة تركيب النداء تأكيدٌ على ذلك. وخلت القراءات الأخرى منه لتترك لشكل فعل «نَسِيَ» تحديد المعنى، فمرّة يرد «**تُنْسَها**» و«**تُنْسَاهَا**» فعلين مبنيين للمجهول، ومرّة أخرى «**نُنْسِكَهَا**»، ومرّة رابعة «**نُنَسِّهَا**» فعلين مسندين إلى الله، وتفيد كلّها معنى نسيان النبيّ ما أقرأه الله. أمّا القراءة الخامسة «**نَنْسَأْهَا**»، فمصدرها فعل «**نَسَأ**»، الذي يدلّ على معنى التأخير (من فعل أَخَّرَ). ومن ثمّة يصبح لدينا ثلاث طرق لتبرير عدم الاعتراف الرّسمي بالقراءة المخالفة ورفضها، وهي: النسخ: بمعنى الرّفع. والنسيان: أي أنّ النبيّ هو الذي ينسى الوحي. والإنساء: فالله هو الذي يُنْسِي النَّبِيَّ ما يوحيه إليه.

19- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص459.

20- الفرّاء، معاني القرآن، ج1، ص64.

21- ابن أبي داود، كتاب المصاحف، ص58.

أمّا **النّسأ**، فتحضر القراءة به عوض النسيان لنفي النسيان عن الرّسول، الذي كان العديد من الصّحابة يُقرّون بوجوده صفة له، فلا يتحرّجون حسب هذه القراءة في نسبتها إليه، حتى إنّ سعداً بن أبي وقّاص لم يعجبه اعتراض بعضهم على قراءته «**تَنْسها**» عندما استشهد بقراءة سعيد بن المسيّب «**تُنسَها**» فردّ عليه بقوله: «**إنّ القرآن لم ينزل على المسيّب ولا على آل المسيّب، قال الله {سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى}**[22] [الأعلى 6/87] **{وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ}** [الكهف 24/18]»[23] إقراراً بأنّ القرآن نفسه نسب صفة النسيان إلى النبيّ.

وقد وصل عدد قرّاء فعل **{نُنْسِها}** إلى اثنين وعشرين قارئاً يمكن أن نصنّفهم على اختلاف قراءاتهم إلى صنفين اثنين: صنف يعود الفعل في قراءاتهم إلى جذر (ن، س، ي)، وصنف اشتقت قراءاتهم من الجذر (ن، س، ء). وهؤلاء القرّاء هم:

قرّاء قراءات الجذر (ن، س، ي)	قرّاء قراءات الجذر (ن، س، ء)
1. سالم بن معقل (ت 12هـ).	1. عمر بن الخطاب (ت 23هـ).
2. أبي بن كعب (ت 32هـ).	2. أبيّ بن كعب (ت 32هـ).
3. عبد الله بن مسعود (ت 32 – 33هـ).	3. عبيد بن عمير (ت 74هـ).
4. حذيفة بن اليمان (ت 36هـ)	4. إبراهيم النخعي (ت 95هـ).
5. سعد بن أبي وقاص (ت 51هـ-58هـ)	5. مجاهد (ت 104هـ).
6. سعيد بن المسيب (ت 94هـ).	6. عطاء بن أبي رباح (ت 114هـ).
7. يحيى بن يعمر (ت 90هـ).	7. عبد الله بن كثير (ت 120هـ).
8. سعيد بن جبير (ت 95هـ).	8. ابن محيصن (ت 123هـ).
9. أبو رجاء العطاردي (ت 105هـ).	9. أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ).
10. الضحاك بن مزاحم (ت 105هـ).	10. يحيى بن المبارك اليزيدي (ت 202هـ).
11. الحسن البصري (ت 110هـ).	
12. ابن شهاب الزهري (ت 124هـ).	
13. الأعمش (ت 148هـ).	

يظهر الجدول أنّ أغلب هؤلاء القرّاء اختاروا القراءات المشتقة من الجذر الأوّل (ن، س، ي) منهم خمسة من الصحابة من جملة ستة، كما أنّ أغلبهم ينتمي إلى القرن الأوّل للهجرة، وأنّ أبيّ بن كعب قرأ بالقراءتين، ما يرجّح أنه من غير المستبعد أن تكون القراءة من الجذر الثاني ظهرت بعد القراءة من الجذر الأول. فكلّما ابتعدنا عن الزمن الأوّل ابتعد القرّاء عن هذه القراءة.

22- تتضمّن هذه الآية أيضاً قراءة نافية لصفة النسيان عن الرّسول وردت في مصحف أبيّ بن كعب وقرأ بها حميد بن قيس (ت 130هـ) وهي: سَنُقْرِؤُكَ فَلَنْ تَنسَى Arthur Jeffery, Materials, for the history of the text of the Qur'an, the old codices. p. 177. أمّا في آية الأعلى (6/87)، فلم ترد قراءة مخالفة في فعل «نسي»، وسبب النزول لا يتعلق بنسيان الوحي.

23- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج2، ص475.

إنّ النسيان أو الإنساء، وفق هذه القراءات، لا يتعارض مع مبدأ النسخ؛ بل يكمّله من جهة المنطق الذي قام عليه وهو التبرير، وتكفي العودة إلى بعض كتب التفسير حتى نقف على حجم هذا التبرير الذي يشرّع لعدم وجود عدد من القراءات مثل ما يرويه الطبري عن أنس أنّهم كانوا يقرؤون قرآناً نزل في السبعين الذين قتلوا ببئر معونة وفيه: بلّغوا عنّا قومنا أنّا لقينا ربّنا فرضي عنّا وأرضانا، ثمّ رُفع، ومثل ما يورده عن أبي موسى الأشعري (في سياق تفسيره لهذه الآية أيضاً) أنّ الصحابة يقرؤون: «**لولا أنّ لابن آدم واديين من مال لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب، ويتوب الله على من تاب، ثمّ رُفع**»[24].

ويورد القرطبي هذا الخبر نفسه عن أبي موسى أيضاً لكن بدل تعليل عدم حفظه بالرفع، يقول أبو موسى: «**إنّا كنّا نقرأ سورة كنّا نشبهها في الطول والشدة بـــ: «براءة» فأنسيتها، غير أنّي قد حفظت منها «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب»**». وفي حديث أبي موسى عن سورة أخرى يقول: «**وكنّا نقرأ سورة كنّا نشبّهها بإحدى المسبحات فأنسيتها، غير أنّي حفظت منها: «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة**»»[25]. فالنسخ والنسيان سواء؛ إذ يعنيان معاً الرفع، حتى إنّ أبيّاً بن كعب وعليّاً بن أبي طالب أثبتا في مصحفيهما حرف «وَ» بدل **{أَوْ}** الوارد في الآية **{ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها}** [البقرة 106/2] الدالّ على التسوية.

ومهما يكن من أمر لم تستقرّ هذه النصوص في القراءة الرّسميّة؛ لذلك وقع استثناؤها بالنسخ، وهو ما عبّر عنه ابن الجوزي في سياق حديثه عن نسخ بعض الآيات بقوله: «**قد نسخ بوحي لم تستقر تلاوته**». والملاحظ أنّ هذا التعبير لم يستعمله سوى ابن الجوزي في تفسيره (**زاد المسير**)[26]، ومؤلّفه في النسخ: (**نواسخ القرآن**)[27].

وعلى الرغم من عدم شيوعه، فإنّنا نرى أنّه أفضل تعبير يختزل الجانب التاريخي، الذي حفّ بتكوّن هذه النصوص جميعاً. كما يختزل حجم الإحراجات، التي تولّدت جرّاء الاختلاف في مدى تغليب إحدى المقولتين على الأخرى: مقولة النسخ ومقولة القراءات. وبقطع النظر عن نتيجة ذلك التغليب، تبدو علاقة التفاعل بين العلمين متينة؛ إذ يبدو الفصل بينهما صعباً في كثير من الأحيان.

24- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج2، ص479-480.
25- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص78-79.
26- ابن الجوزي، زاد المسير، ج2، ص36.
27- ابن الجوزي، نواسخ القرآن، ج1، ص144.

3- القراءات وأسباب النزول:

وغير بعيد عن هذا التفاعل، وإن كان تفاعلاً أقلّ درجة ممّا سبق، يبدو للقراءات دور في صنع أسباب النزول، العلم الثالث الذي نودّ أن نجلّي علاقة القراءات به، وهو: «**ما نزلت الآية أو الآيات متحدّثة عنه أو مبيّنة لحكمه أيّام وقوعه، والمعنى أنّه واقعة حدثت في زمن النّبي صلى الله عليه وسلم، أو سؤال وُجّه إليه، فنزلت تلك الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة**»[28]. منطلقنا في ذلك تعدّد هذه الأسباب في الآية الواحدة، وبُعدها في العديد من الأحيان عمّا أُثبِتَ في القراءة الرّسميّة من معنى؛ لتصبح القراءة المخالفة دالّة على السبب الأكثر ملاءمة للآية. والعكس صحيح أيضاً. ويمكن أن نعرض نماذج لهذه القراءات وما رافق الآيات المتعلقة بها من أسباب نزول.

لكن نودّ أن نورد قبل ذلك بعض الملاحظات حول ما أورده بسّام الجمل في هذا الصّدد، خصوصاً ما يتعلّق بسبب رفض المفسّرين القراءة المخالفة للمصحف العثماني.

ـ إذ يرى بسّام الجمل أنّ المفسّرين كانوا صارمين في التعامل مع القراءات المخالفة للمصحف العثماني، التي لا يعتدّ فيها أصحابها بما نُسِبَ إلى الرّسول من أخبار مبيّنة لأسباب نزول القرآن، ولا يستند هذا الرّأي إلى حجج قويّة تعضد صحّته؛ لأنّ أسباب رفض هذا النوع من القراءات تتجاوز أسباب النزول، ولا تلتفت إليها إلّا في مناسبات قليلة؛ بل تعدّ الاختلافات العقائديّة من أهمّ الأسباب التي استند إليها المفسّرون في ردّها، بما أنّها تمثّل الخطر الأكبر الذي يتهدّد وجودهم، وما المبادئ التي أعلنها المتأخّرون من أمثال ابن الجزري، وجعلوها الأساس في تمييز القراءة المقبولة من القراءة المردودة، إلّا دليل واضح على ذلك. والشاهد الذي أورده الباحث يدعم ما ذهبنا إليه.

ـ ثمّ إنّ هذا الشاهد يبدو حجّة يتيمة من حيث القراءة التي أشار إليها، فهذه القراءة قد استحضرها القرطبي في مقدّمة تفسيره ضمن باب ما جاء من الحجّة في الردّ على من طعن في القرآن، وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان، ثمّ أعاد ذكرها في سياق تفسيره لسورة الإخلاص (112). وعلى الرغم من أنّها تكاد تكون غائبة عن التفاسير الأخرى، فقد أوردها العديد من مصنّفات الحديث معتبرة إيّاها قراءة عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود[29]. وقد ذكرت بعض المصادر أنّها أيضاً قراءة النبيّ[30]، لكنّ جيفري (A.

28- الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص89.

29- الصّنعاني، عبد الرزاق، المصنف لعبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1403هـ، ج2، ص118.

30- ورد في صحيح البخاري: «قَالَ [رسول الله]: اللَّهُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القُرْآنِ». البخاري، الجامع الصحيح، باب فضل {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص 1/112]، ج4، ص1916. وجاء في شعب الإيمان للبيهقي: «قال [رسول الله]: «قل هو الله أحد ثلث القرآن». وجاء أيضاً «الله الواحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» ثلث القرآن، رواه البخاري في الصحيح، انظر: البيهقي، شعب الإيمان، ج2، ص503.

Jeffery)[31] نسبها إلى قارئ آخر يبدو مهمّاً في تبرير موقف القرطبي السّالف الذكر، وهو جعفر الصادق (ت 148هـــ) المحسوبة قراءاته على الشيعة، وهو الأمر **نفسه** الذي يمكن أن نفسّر به نسبتها إلى ابن مسعود وأبيّ أيضاً. فالقول، إذاً، بأنّ القرطبي لم يقبل هذه القراءة؛ لأنّها تهمّش سبب نزول الآية[32] يحتاج إلى كثير من المراجعة.

ـ وعلى الرغم من أهمّية النتائج التي انتهى إليها الباحث، لم يشر إلى ظاهرة مهمّة جداً في أسباب النزول تكمن في تعدّد أسباب نزول الآية الواحدة في علاقتها بالقراءات التي تتعلّق بتلك الآية. وهي ظاهرة جديرة بالاهتمام؛ لأنّها ستكشف عن التفاعلات الممكنة بين هذا التعدّد من الجانبين.

وللوقوف على ذلك رأينا أن نقلّب النظر في أسباب النزول من الواحد إلى المتعدّد، فقد جاء في تفسير القرطبي أنّ الآية **{وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا}** [المائدة 2/5] نزلت عام الفتح سنة ثمانٍ، وكان المشركون صدّوا المسلمين عام الحديبية سنة ستٍّ، فالصدّ كان قبل الآية، وإذا قرئ بالكسر لم يجز أن يكون إلّا بعده، (...) فهذا لا يكون إلّا للمستقبل، وإن فتحت كان للماضي، فوجب على هذا ألّا يجوز إلّا **{أَنْ صَدُّوكُمْ}**[33]. فالقرطبي يستبعد قراءة «**إنْ صَدُّوكُمْ**» بالكسر على الرغم من أنّها موافقة للرّسم العثماني، وقد قرأ بها بعض قرّاء الحجاز والبصرة اتّباعاً لقراءة ابن مسعود[34]، وقرأ بها أيضاً ابن كثير وأبو عمرو من السبعة[35]؛ فالقرطبي لا يجوّز التلاوة بها لأنّها قراءة تتعارض مع الواقعة التاريخيّة التي دلّ عليها سبب النزول.

وقد أورد الواحدي والسّيوطي سببين مختلفين لنزول الآية **{ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها}** [البقرة 106/2]؛ فالواحدي يعزو سبب نزولها إلى قول المشركين: «**إنّ محمّداً يأمر أصحابه بشيء ثمّ ينهاهم عنه، فما كان هذا القرآن إلّا من جهته ولهذا يناقض بعضه بعضاً**»[36]. بينما يروي السيوطي خبراً عن ابن عباس جاء فيه: «**كان ربّما ينزل على النبيّ الوحي بالليل ونسيه بالنهار**»[37] فنزلت

31- يثبت جيفري أنّهم قرؤوا "هُوَ اللهُ الوَاحِدُ":

Arthur Jeffery, Materials, for the history of the text of the Qur'an, the old codices, p. 313.

32- الجمل، بسّام، أسباب النزول، ص254.

33- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص46. وهي قراءة حفص.

34- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج6، ص80. ويرى الطبري أنّ قراءة الفتح أبين دون أن يربط ذلك بسبب النزول الذي ذكره أيضاً.

35- ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات، ص242.

36- الواحدي، أسباب النزول، ص19.

37- السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، ص14.

هذه الآية. وهو الخبر الذي ينسجم مع قراءة فعل {**نُنْسِها**} المشتق من النسيان، وخصوصاً قراءة «**تَنْسها**» التي ذكرناها سابقاً.

وأثبت الواحدي أيضاً سببين في نزول الآية (180) من سورة آل عمران (3): يتعلّق الأوّل بمانعي الزكاة، ويشير الثاني إلى أنّها نزلت في أحبار اليهود عندما كتموا صفة محمّد ونبوّته[38]. وعلى الرغم من أنّ مضمون الآية يدور حول المال لتضمّنه لفظي المال والميراث ما يجعل السبب الثاني مستبعداً، فإنّ قراءة أبيّ «**سَيُطَوَّقُونَ مِنَ الزَّكَاةِ**»[39] لا تدع مجالاً للشك في أنّه سبب يتناقض تناقضاً تاماً مع مضمون الآية حسب القراءة الرسميّة.

والآية: {**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ**} [البقرة 198/2]، لم تصرّح بزمن رفع الحرج عن ابتغاء الفضل؛ بل يفهم ذلك من السياق؛ إذ الإفاضة تكون في الحج، وهو ما صُرّح به في سبب النزول والقراءة المخالفة. فقد ذكر البخاري: «**إنّ الآية نزلت لأنّ المسلمين تأثّموا الاتّجار في موسم الحجّ من الأسواق التي كانت في الجاهليّة**»[40] وهو نفس ما ورد من ألفاظ في قراءة عبد الله بن مسعود «**فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ فَابْتَغُوا حِينَئِذٍ**»[41] مع اختلاف بين الإفراد والجمع. كما ورد لفظ «**الفضل**» نكرة وغير دالٍّ على معنى واضح، لكنّ سبب النزول بيّن أنّ ابتغاء الفضل هو التجارة في الحجّ، وهذا ما تضمنته قراءة عبد الله بن مسعود أيضاً «**وَمَنْ تَاجَرَ فَلَا إِثْمَ لِمَن اتَّقَى اللهَ**»[42].

ومن أوضح الأمثلة التي تتداخل فيها أسباب النزول في الآية الواحدة ما أثبته الفرّاء والجصّاص (ت 370هـ) وابن العربي في سبب نزول الآية {**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَأُولُو الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلاّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذَلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً**} [الأحزاب 6/33].

لكنّ هذا التداخل يظهر بوضوح عند النقطة التي تلتقي فيها تلك الأسباب مع القراءات المخالفة؛ فاختلاف أسباب نزول الآية الواحدة يبرّره تعدّد القراءات فيها، ما يفترض علاقة سببية بين العلمين. فلا شكّ

38- الواحدي، أسباب النزول، ص74.

39- Arthur Jeffery, Materials, for the history of the text of the Qur'an, the old codices, p. 12

40- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التفسير، باب ليس عليكم جناحٌ أن تبتغوا فضلاً من ربّكم، ج4، 1642.

41- ابن أبي داود، كتاب المصاحف، ص54-55.

42- Arthur Jeffery, Materials, for the history of the text of the Qur'an, the old codices, p. 29

في أنّ العالِم بأسباب النزول لا بدّ من أن يكون أعلم باختلاف القراءات؛ لذلك بدا من المهمّ أن ننظر إلى الآية سابقة الذكر على أساس تكوّنها من أجزاء ثلاثة: كلّ جزء منها يوافقه سبب نزول، وهي كالآتي:

الآية حسب قراءة حفص	(النَبِيّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ)	(وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُهَاجِرِينَ)	(إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا)
أسباب النزول	**أراد النبيّ غزو تبوك فأمر الناس بالخروج، فقال ناس: نستأذن آباءنا وأمّهاتنا، فنزلت الآية[1].**	**كان المسلمون متآخين، وكان الرجل إذا مات عن أخيه الّذي آخاه ورثه دون عصبته وقرابته فنزلت الآية[2].**	**روى محمّد بن الحنفيّة أنّها نزلت في جواز وصيّة المسلم لليهوديّ والنصرانيّ[3].**
القراءات المخالفة	**في حرف أبي** «النَّبِيُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ»[4]	**في مصحف ابن مسعود** «ثُمَّ أُولُو الأَرْحَامِ أَوْلَى بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ»[5].	**في مصحف ابن مسعود** «إِلَى أَوْلِيَائِكُمَا مَعْرُوفًا فِي المُهَاجِرِينَ وَالمُؤْمِنِينَ»[6]

1- ابن العربي، **أحكام القرآن**، ج3، ص1507.

2- الفرّاء، **معاني القرآن**، ج2، ص335.

3- الجصّاص، **أحكام القرآن**، تحقيق محمّد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1405هـ، ج5، ص223.

4- الصّنعاني، عبد الرزاق، تفسير عبد الرزاق، ج5، ص274. ويثبت القرطبي مثل هذه القراءة مع اختلاف في ترتيب الألفاظ، ويعزوها لأبيّ بن كعب وابن مسعود وهي «النَّبِيُّ أَوْلَى بالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ». القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج5، ص359، ج9، ص76.

5- Arthur Jeffery, **Materials, for the history of the text of the Qur'an, the old codices**, p. 75.

6- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

يُظهر الجدول، إذاً، سببَ نزولٍ وقراءةً مخالفة لكلّ جزء من الأجزاء الثلاثة للآية. وعلى الرّغم من الانسجام الظاهر بين أجزاء الآية برواية حفص، وهو ما تؤكّده القراءات المخالفة، فإنّ أسباب النزول تُشتت هذا الانسجام؛ الأمر الذي يدفع إلى التساؤل عن مدى إحاطة علماء أسباب النزول بالنصّ القرآني في تعدّد قراءاته؟ فهل يمكن القول: إنّ القراءة تلد أسباب النزول؟ وأنّ مولّد هذه الأسباب أو صانعها إنّما استند إلى القراءات لينسج على منوالها أخباراً توافقها؟ ما يدفعنا إلى القول: إنّ نصّ أسباب النّزول نصّ لاحق لنصّ القراءات. أليس هذا التوالد إلّا تفاعلاً للمسلمين مع النصّ القرآني بقراءاته المختلفة، وما أسباب النزول إلّا وجه من وجوه ذلك التفاعل. وإذا كان من النصوص اللواحق فلماذا لم يراع الاختلاف في إنتاجه؟ ألا يمكن القول إنّ هذا النوع من القراءات يندرج ضمن ما يحمل على أسباب النزول؟

4- القراءات ومسألة التكرار:

من علوم القرآن المهمّة في هذا الصدد علاقة القراءات بمسألة التكرار، التي أشكلت على القدامى كما المحدثين من زاوية تكرار النزول، وقد دفعنا إلى الاهتمام بذلك ما ورد في كتاب (**الإتقان**) للسّيوطي في النوع الحادي عشر: **ما تكرّر نزوله**[43]، الذي أشار فيه إلى علاقته بحديث الأحرف السبعة: «**أنزل القرآن على سبعة أحرف**»[44]. والجامع بين التكرار والقراءات في هذا الحديث هو تعدّد النزول المشار إليه في لفظ «**سبعة**»؛ بقراءات مختلفة دلّ عليه لفظ «**أحرف**» في صيغة الجمع، ما يعني أنّ تكرّر النّزول اقتضى في بعض الأحيان أن يقرأ الذي أنزل أكثر من مرّة بوجه غير الذي أنزل به أوّل مرّة؛ بل يمكن أن يكون قد نزل سبع مرّات بحروف مختلفة. يقول السيوطي: «**قد يجعل من ذلك الأحرف التي تقرأ على وجهين فأكثر**»[45]. ومن الأمثلة التي استند إليها السّيوطي وغيره نزول الفاتحة (1) مرّتين، وعلّل السخاوي تكرّر نزولها بقوله: «**يجوز أن يكون نزلت أوّل مرّة على حرف** واحد، ونزلت في الثانية ببقيّة وجوهها نحو «**مَلِكِ**» و«**مَالِكِ**» و«**السِّرَاطَ**» و«**الصِّرَاطَ**»»[46].

وعلى الرغم من وجود من ينكر مسألة التكرار هذه، فإنّه لا يجد مناصاً من تبرير القول بتكرّر النزول بأنّ جبريل لم ينزل بالفاتحة (1) مرّتين؛ بل قرأها على الرّسول مرّتين، مرّة في مكّة وأخرى في المدينة لمّا حوّلت القبلة[47]. وبهذا المعنى إنّ تكرّر النزول ليس إلّا تبريراً للتعارض بين علمي المكّي والمدني وعلم

43- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص22.
44- انظر أعلاه: الباب الأوّل، الفصل الثاني، ص59.
45- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص105.
46- السخاوي، جمال القراء وكمال الإقراء، ج1، ص184.
47- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص105.

أسباب النزول. ولا يجد ملجأ من أن يذكر أنّ السورة مكيّة وسبب نزولها مدنيّ، ولنفي هذا التعارض بين زمن النزول وسببه التجؤوا إلى مقولة تكرّره، ولتكون هذه المقولة مقبولة استدلّوا عليها بتعدّد القراءات.

والجدير بالذكر أنّ السّيوطي ارتكز على الزركشي في التأسيس لعلم تكرّر النزول، فهو أوّل من تحدّث عن هذا النوع من علوم القرآن، لكنّه لم يتطرّق إلى علاقته بالقراءات كما لم يذكر حديث الأحرف السبعة إلّا في النوع الحادي عشر: **معرفة على كم لغة نزل**[48].

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ السّيوطي استند في دفاعه عن علم ما تكرّر نزوله إلى مرجعيتين متعارضتين؛ يمثّل المرجعيّة الأولى السخاوي والزركشي، وهي التي تقول بتكرّر نزول القرآن. وتنكر المرجعيّة الثانية هذا النوع من علوم القرآن؛ بل تبلغ في إنكاره له مبلغ نفيه نفياً تامّاً[49]. ويمثّلها عماد الدين الكندي (ت 741هـــ) المفسّر صاحب كتاب (**الكفيل بمعاني التنزيل**). وعلى الرغم من تضاربهما يستند كلاهما في التشريع للعلم أو إنكار التكرار إلى القراءات:

فالسخاوي يعزو الفائدة من نزول الفاتحة (1) مرّة ثانية في المدينة بعد نزولها في مكّة إلى كونها قد تكون نزلت أوّلاً على حرف واحد، ونزلت ثانية ببقيّة وجوهها. أمّا عماد الدين الكندي، فإنّه ينكر تكرّر النزول معتبراً **أنّ نزول جبريل حين حوّلت القبلة لم يكن بالفاتحة مرّة أخرى كما ظُنّ ذلك، وإنّما نزل ليقرئ الرسول فيها قراءة أخرى لم يقرئها له بمكّة**[50]. ولعلّ حماسة المهتمّين بتكرّر نزول الفاتحة (1) على وجه الخصوص يعود إلى تعارض سبب نزولها المؤكّد أنّها سورة مدنيّة، والقول إنّ الصّلاة التي لا تتمّ إلّا بها قد فُرضت في مكّة. لكنّ كثرة الاختلافات الواردة في هذه السورة يطرح الإشكال نفسه.

فعلى الرغم من قصرها، وعلى فرض نزولها في مكّة، فإنّ تلك الاختلافات لا تؤيّد هذا الرّأي؛ إذ من المفترض أن يكون نصّ قرآني قصير نزل في الفترة المكيّة أن يكون قليل الاختلافات، قليل التكرار أيضاً. لكنّ ذلك لم يتوافر فيه، فقد وقفنا على الاختلاف في كلّ آيات السورة، كما كانت نسبة التكرار فيها متراوحة بين (60 و70%)[51]. وكنّا قد أشرنا في الفصل الثاني من الباب السابق إلى أنّ كثرة الاختلاف والتكرار من سمات السور المدنيّة؛ لذلك يصبح التكرار والقراءات عاملين مهمّين من العوامل التي يمكن التعويل عليها في تمييز النصوص القرآنيّة.

48- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص211 وما بعدها.

49- العلائي، محمّد الصحبي، علوم القرآن ومنزلتها بين العلوم الشرعيّة، ص165.

50- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص105.

51- تتغير نسبة التكرار إذا أخذنا في الاعتبار اختلاف علماء القرآن في اعتبار البسملة آية من الفاتحة (1) وآية من كلّ السّور، أو عدم اعتبارها كذلك.

وتجدر الإشارة إلى أنّ قضية التكرار قد أثارها السّيوطي أيضاً[52] من زاوية أخرى ليست لها علاقة بتكرّر النزول، وهي التراكيب المكرّرة في السورة نفسها من قبيل تكرار الآية **{إِلاّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}** [الصافات 40/37 و74 و128 و160]، أو الآية **{فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ}** [الرحمن 13/55] التي تكرّرت ثلاثين مرّة في سورة الرحمن (55)، وهو المثال الذي اقتصر السّيوطي على ذكره.

وقد أطلق السّيوطي على هذا النوع من التكرار مصطلح **التكرّر في المحل**، الذي اشترط التواتر في نقله؛ إذ يقول السيوطي مبرّراً ضرورة توافر هذا الشرط: «**فلأنّا لو لم نشترط التواتر في المحل جاز أن لا يتواتر كثير من المتكرّرات الواقعة في القرآن**»[53]. وانتفاء تواتر نقلها قد يؤدّي، حسب السّيوطي، إلى سقوط كثير من القرآن الذي مثّل جزءاً كبيراً في بعض السور[54].

ومن بين هذه الأمثلة -وهي كثيرة- تركيب **{وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ}** [البقرة 3/2]، الذي تكرّر في المائدة (55/5) وفي الأنفال (3/8) وفي التوبة (71/9) والنمل (3/27) ولقمان (4/31). وتركيب **{وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ}** [البقرة 3/2] الذي تكرّر في القصص (54/28) والسجدة (16/32) والشورى (38/42). وتركيب **{بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}** [البقرة 4/2] الوارد أيضاً في النساء (60/4، 162).

ومن بين المسائل التي لها علاقة بالتكرار في المحل قراءة اللفظ من التركيب نفسه المكرّر قراءات مختلفة مثلما هو الحال بالنسبة إلى ما ورد في الآية من تركيب **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِناءً}** [البقرة 22/2] يمكن مقارنته بما ورد في الآيات الآتية:

- **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً}** [طه 53/20].
- **{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً}** [غافر 64/40].
- **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً}** [الزخرف 10/43].
- **{أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً}** [النبأ 6/78].

فقد ورد في هذه الآيات الخمس التركيب النحوي الآتي:

52- أثار هذه المسألة وما شابهها كثيرون قبل السّيوطي، نذكر خاصة القاضي الباقلاني في الانتصار، لكنّه عالجها في سياق ردّه على القائلين بفساد نظم القرآن، ووقوع كثير من التخليط فيه بسبب كثرة ما فيه من تكرار القصّة بعينها مرّة بعد مرّة (...) وتكرار اللفظ والكلمة...، وهذا النوع من التكرار ليس هو ما قصده السّيوطي. انظر في هذا الصدد: الباقلاني، الانتصار للقرآن، ج2، ص800 وما بعدها.

53- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص210.

54- انظر على سبيل المثال سورة الرحمن 55.

مفعول به1 الأرض + مفعول به 2 فراشا بساطا [55]+ مهدا[56]+ مهادا[57]

قرارا ← Ø

مهدا ← مهادا[58]

مهادا ← مهدا[59]

بالعودة إلى القراءات المخالفة للفظ الذي ورد مفعولاً به متعلقاً بالأرض نلاحظ أنّ كلّ الآيات باستثناء غافر (64/40) وردت فيها قراءة «**مَهْدًا/ مِهَادًا**»، وأنّ الآية المستثناة لم نعثر فيها على أيّ قراءة مخالفة للفظ **{قَراراً}**، لكنّ محقق تفسير ابن كثير سامي سلامة أشار في هامش تحقيقه عند استدلاله بهذه الآية في تفسير البقرة (22/2) أنّه ورد في المخطوطة (جـــ) «**فِرَاشًا**» مكان **{قَراراً}** مشيراً إلى أنّه خطأ من ناسخ المخطوطة؟(6)?. وهذا الأمر ليس مقتصراً على مخطوطات التفسير؛ ، بل لاحظناه أيضاً في بعض المصاحف المخطوطة التي حفظت لنا مثل هذه «الأخطاء» ونقصد بذلك ما تضمّنه المصحف المذهب من شطب في العديد من المواضع. ولعلّ سبب تلك الأخطاء يعود أساساً إلى وجود التكرار الذي ارتبط هذه المرّة بضعف الذاكرة؛ إذ لم تستطع أن تميّز بين نصين متشابهين فأحالت على نصّ غير الذي قصدت إليه. وقد تواتر هذا الأمر أيضاً في مصحف أمة الله فاطمة في غير موضع. كما لاحظنا ذلك في عدد من مخطوطات المصاحف الموجودة في متحف رقادة بالقيروان.

وتتشابه الآيتان **{وَسارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّماواتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}** [آل عمران 133/3] و**{سابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا}** [الحديد 21/57]. لكنّ قراءة ابن مسعود وأبيّ بن كعب «**وَسَابِقُوا**» بدل **{وَسارِعُوا}** تجعل التركيبين متماثلين. **ويرد في البقرة (36/2) تركيب {فَأَزَلَّهُما الشَّيْطانُ}** الذي أثبت ابن مسعود مكانه في مصحفه «**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ**»، وهو التركيب نفسه الوارد في الأعراف (20/7) حسب قراءة حفص[60].

55- قراءة يزيد الشامي [أبو حيوة]، الزّمخشري، **تفسير الكشاف**، ج1، ص215.

56- قراءة طلحة، ابن خالويه، **مختصر في شواذ القرآن**، ص11.

57- قراءة طلحة، الزمخشري، **تفسير الكشاف**، ج1، ص215.

58- قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر، ابن مجاهد، **كتاب السبعة في القراءات**، ص418.

59- قراءة الجمهور، ابن عطيّة، **المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج5، ص47. وكذا في مصاحف أبيّ ومجاهد وابن خيثم (ت 36هـ)، وهي قراءة عيسى الثقفي(Arthur Jeffery, **Materials, for the history of the text of the Qur'an, the old codices**, p. 175, 284, 310.)، ونسبها ابن خالويه إلى مجاهد وعيسى الهمداني [الثقفي]، ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن، ص168.

60- والتركيب نفسه تقريباً الذي تضمّنته سورة طه (120/20)، ولكن في صيغة المفرد وهو {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ} [طه 120/20].

إنّ هذه الأمثلة وغيرها تدلّ على أنّ القراءات تتردّد بين حالتين: حالة يطغى عليها التشابه إذا كان التركيبان اللذان ينتميان إلى آيات متباعدة يختلفان في لفظ ويتفقان في بقية الألفاظ، والحالة الثانية هي وليدة الحالة الأولى؛ إذ سرعان ما يُنتقل من التشابه إلى التّماثل بمجرّد اختيار إحدى القراءتين وتغليبها على الأخرى حتى يصبح التركيبان تركيباً واحداً.

يمكن القول، إذاً، إنّ التكرار مثل العلوم الأخرى يتقاطع مع القراءات في الإحاطة بالنصّ القرآني؛ فلا شكّ في أنّ المادّة التفسيريّة الأولى كانت القراءات نفسها. كما بدا واضحاً أنّ النسخ ينطلق من النصّ القرآني، وتتعدّد معانيه بتعدّد قراءات ذلك النصّ؛ بل إنّ مضمونه يعدّ جزءاً كبيراً من تلك القراءات، لذلك كان من غير المستبعد أن تسهم تلك القراءات في تعدّد أسباب النزول وصناعتها. وليست هذه العلوم إلّا نماذج دلت على ترابطها بخيط متين هو القراءات.

وإذا كان تأكيد ذلك ممكناً، فليس من السهل إثبات أثر تلك العلوم في القراءات إلّا من زاوية خارجيّة؛ أي من حيث تحديد كيفيّات التعامل مع تلك القراءات إمّا بالتّسييج وإمّا بنزع صفة القرآنيّة عنها أو بإبطال مفعولها في الواقع والوجود. والغاية القصوى من ذلك كلّه إبقاء هذه العلوم في علاقة تضفي التناغم بين منظومة علوم القرآن كلها، ويتحقق ذلك التناغم إمّا بجعل مظاهر اختلاف القراءات جوفاء من خلال إفقادها فاعليتها التي كان من الممكن أن تتمتّع بها، وإمّا برفضها رفضاً ينسجم مع ما يطلبه الضمير الجمعي بترشيح الأنموذج الأوفى للقراءات/ للقراءة الرسميّة التي تحمي النصّ من الاختلاف بالعمل على إبقائه ضمن الحدّ الأدنى منه، والتي تعمل في الوقت ذاته على تحقيق ذلك في هالة القداسة التي تحيط بتلك القراءات والاختلاف معاً.

أمّا الحديث عن أثر تلك العلوم في القراءة من الدّاخل، فيصعب تحديد وظيفة أيّ عمليّة تفسيريّة مبكّرة جدّاً في تكوّن عدد ممكن من تلك القراءات، كما يصعب إثبات دور الذاكرة في تكرار بعض القراءات. ولا يمكن طرح هذا الأمر بالنّسبة إلى العلوم الأخرى لسبب منهجيّ بسيط، وهو أنّ تكوّن القراءات كان سابقاً لتلك العلوم. لكن هل يعني ذلك أنّ تلك العلوم قد أفلحت فعلاً في تحقيق أهدافها على مستوى الواقع العملي؟ ذلك ما يمكن أن تجيبنا عنه علاقة القراءات بالتشريع.

لائحة المصادر والمراجع:

- **المصادر**[61]:

I- المصاحف:

- القرآن الكريم، مصحف المدينة النبويّة برواية حفص عن عاصم، مجمّع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد، المدينة المنورة، 1412هـ.

- القرآن الكريم، مصحف برواية ورش عن نافع المدني [من سورة مريم 19 إلى الناس 114]، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1349هـ.

- القرآن الكريم، مصحف برواية حفص عن عاصم، دار القرآن الكريم، طهران، 1370هـ.

- القرآن الكريم، مصحف دولة الكويت [برواية حفص عن عاصم]، طبعة ذات السلاسل، 1982م.

II- المصادر المطبوعة:

1- كتب التفسير:

- الفرّاء، يحيى بن زياد (ت 207هـ)، معاني القرآن، دار عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983م.

- الصّنعاني، عبد الرزاق بن همام أبو بكر (ت 211هـ)، تفسير عبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت ط2، 1403هـ.

- الطبري، محمّد بن جرير أبو جعفر (ت 310هـ)، تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود محمّد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، (د.ت).

- الجصاص، محمّد بن علي أبو بكر الرازي (ت 370هـ)، أحكام القرآن، تحقيق محمّد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، 1992م.

- القرطبي، محمّد بن أحمد أبو عبد الله الأنصاري (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، 1985م.

- الزمخشري، محمود بن عمر (ت 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، مكتبة العبيكة، الرياض، ط1، 1998م.

- ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي (ت 542هـ)، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمّد، دار الكتب العلميّة، لبنان، ط1، 1993م.

- ابن الجوزي (ت 597هـ)، عبد الرحمن بن علي بن محمّد أبو الفرج، تفسير زاد المسير في علم التفسير، ط. المكتب الإسلامي، (د.ت).

- أبو حيان الأندلسي، محمّد بن يوسف (ت 745هـ)، تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2001م.

61- مرتبة ترتيباً تاريخيّاً ضمن مشاغلها.

2- كتب القراءات وعلوم القرآن:

- السجستاني، عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث (ت 316هـ)، كتاب المصاحف، تحقيق آرثر جيفري، المطبعة الرحمانيّة، القاهرة، ط1، 1936م.

- ابن مجاهد، أبو بكر (ت 324هـ)، كتاب السبعة في القراءات، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1972م.

- ابن خالويه، الحسين بن أحمد أبو عبد الله (ت 370هـ)، مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع، تحقيق آرثر جيفري، مكتبة المتنبي، مصر، (د.ت).

- الباقلاني، أبو بكر بن الطيب، الانتصار للقرآن (ت 403هـ)، تحقيق محمّد عصام القضاة، دار الفتح للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ودار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 2001م.

- ابن سلامة، هبة الله، الناسخ والمنسوخ (ت 410هـ)، بهامش كتاب علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).

- ابن العربي، محمّد بن عبد الله أبو بكر (ت 453هـ)، الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، دراسة وتحقيق عبد الكبري العلوي المدغري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1988م.

- الواحدي، علي بن أحمد النيسابوري (ت 498هـ)، أسباب النزول، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).

- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي أبو الفرج (ت 597هـ): نواسخ القرآن، تحقيق محمّد أشرف علي الملباري، المدينة المنورة، ط1، 1984م.

- الزركشي، محمّد بن بهادر بن عبد الله أبو عبد الله (ت 794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1391هـ.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت 911هـ): الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، طبعة الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1974م.

- الزرقاني، محمّد عبد العظيم (ت 1367هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1995م.

3- كتب الحديث وعلومه:

- الصّنعاني، عبد الرزاق بن همام أبو بكر (ت 211هـ)، مصنف عبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1403هـ.

- ابن منصور، سعيد (ت 227هـ)، سنن سعيد بن منصور، دراسة وتحقيق سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط1، 1993م.

- البخاري، محمّد بن إسماعيل أبو عبد الله (ت 256هـ)، الجامع الصحيح، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير - اليمامة، بيروت، ط3، 1987م.

- ابن الصلاح، عثمان أبو عمرو (ت 643هـ)، مقدّمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح، تحقيق عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

المراجع:

المراجع العربيّة والمعرّبة:

- الجمل، بسّام، أسباب النزول، ط1، المركز الثقافي العربي - المؤسّسة العربيّة للتحديث الفكري، بيروت - الدار البيضاء، 2005م.

- العلاني، محمّد الصحبي، علوم القرآن ومنزلتها بين العلوم الشرعيّة، ضمن سلسلة دراسات، العدد 12، المركز القومي البيداغوجي، تونس، ط1، 1999م.

المراجع باللسان الأجنبي:

- Jeffery, ***Materials, for the history of the text of the Qur'an, the old codices***, Leiden, 1937.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2019

جميع الحقوق محفوظة © 2019